المبدع.. بوصفه ناقداً

عبدالنبي اصطيف

يمارس المبدِع (الذي ينعم بخرافة الإبداع، إذ ليس ثمة إبداع بمعنى الخلق من العدم، وإنما هناك بناء من الحجارة التي بقيت في ساحات العمارات البائدة لمن سبق من البنائين) النقد الأدبي بوصفه فعالية متممة لفعالية أخرى هي (الممارسة الأدبية) تغلب عليه وتمنحه هويته الخاصة به؛ (فهو الشاعر، أو الروائي، أو القصاص، أو الكاتب المسرحي، أو كاتب السير). والصلة بين الفعاليتين صلة عضوية تستند إلى استخدامهما أداة واحدة هي اللغة الطبيعية، على الرغم من اختلاف توظيف كل من الفعاليتين لهذه الأداة، (ذلك أن الكاتب يوظف اللغة الطبيعية لتؤدي عدة وظائف تسودها الوظيفة الجمالية، في حين يوظف النقد الأدبي اللغة الطبيعية في شرح النص الأدبي وتفسيره وتحليله وتركيبه ومقارنته والحكم عليه، أي في تيسير عمليات التفكير المنظم الواضح والدقيق في هذا النص).

وربما كانت هذه الصلة هي ما يغري في الحقيقة «المبدع» في ممارسة النقد الأدبي؛ فالنقد – فيما يبدو «للمبدع»- ليس غير إنشاء لغوي ومن أقدرُ على إنتاجه من المبدع نفسه وهو صاحب الباع الطويل، والخبرة المجمع عليها، والإحساس المتسامي بهذه الأداة التي هي اللغة. أليست هي أداته التي يصوغ بها عوالمه الساحرة الأخاذة التي تضارع الواقع وربما تفوقه في مصداقيتها. والحقيقة أن الممارسة النقدية والممارسة الأدبية، ليستا غير وجهين مختلفين لعملة واحدة هي الفكر الأدبي في الإفصاح عنه على نحو صريح ومباشر، في الممارسة النقدية وفي الالتزام به ضمناً كنظام يحكم الممارسة الأدبية أو عملية الإنتاج الأدبي ذاتها.

وواقع الحال أن ممارسة «المبدع» للنقد الأدبي غالباً ما تكون موجهة بجملة من الأهداف، ينطوي جميعها تحت عنوان «تسويغ الإنتاج الأدبي وتيسير تلقيه على الآخرين».

فالنقد الأدبي الذي يمارسه المبدع، يهدف أول ما يهدف إلى عقلنة عملية الإنتاج الأدبي للمبدع نفسه، وهو بهذا تفكير بصوت عال أو لنقل إنه تفكير على نحو مسموع في هذه العملية وسعي، من جهة لشرحها للذات المبدعة نفسها حتى تزداد بها وعياً، ولها تجويداً، وحتى تكفل لحصيلتها تأثيراً أوسع في الذات المتلقية من جهة أخرى.

وهو نقد أدبي موجه للزملاء من المبدعين: الأتباع والمنافسين على حد سواء؛ فأما الأتباع فليقتدوا به وليتخذوا منه الأسوة الحسنة التي تعرج بهم إلى سماوات الإبداع، وليتبينوا مواقع خطوهم إذ يمضون في مراقي هذا الطريق الصعب، وهو بعد هذا وذاك نقد أدبي موجه للنقاد أنفسهم؛ لأن «المبدع» لا يحسن الظن في قدرتهم على تفهم نصوصه فيسعى، فيما يبدو له، إلى تقديم مفاتيحها حتى ييسر عليهم ما يرى أنه الفهم الأمثل لهذه النصوص، وذلك حتى لا يخطئوا فهمها.

وهو أخيراً نقد أدبي موجه إلى القراء عامة، يوحي لهم بطرق مقاربة نتاج صاحبه وسبل دراستها، أو قراءتها قراءة نقدية ما، حتى يستطيعوا تحويل التجربة الفنية التي ينطوي عليها إلى تجربة جمالية فاعلة ومؤثرة فيهم.

> **ممارسة المبدع للنقد الأدبي بهدف تسويغ الإنتاج وتيسير تلقيه على المتلقي**

ولكن كيف يمارس المبدع النقد الأدبي؟ ومتى؟

من البين أن المبدع يقوم بجملة من الأفعال النقدية (التي تنطوي على مقدار من التمييز، أو الشرح، أو التفسير، أو الحكم، أو الموازنة وغيرها)، لا ينتهي جميعها بنص نقدي، وبالتالي لا يسهل علينا تمييزها ووعي أبعادها وأهميتها بوصفها ممارسة نقدية متممة للممارسة الأدبية. فنحن في الحقيقة لا نكاد نرى على نحو واضح وملموس إلا تلك الممارسات النقدية التي تنتهي بنص نقدي، وبالتالي نظن أنها الممارسات الوحيدة التي يؤديها المبدع، ونغفل بالتالي عما سواها مما يمكن أن يكون على درجة مماثلة لها في الأهمية إن لم يكن ربما يفوقها. مهما كان الأمر فإن المبدع يمارس النقد الأدبي: قبل إنتاج نصه أو في طور ما قبل الإنتاج الأدبي،

وفي أثناء إنتاجه لنصه أو في طور الإنتاج الأدبي، وفي أثناء إنتاجه لنصه أو في طور ما بعد الإنتاج الأدبي.

طور ما قبل الإنتاج: يمارس المبدع النقد الأدبي في طور ما قبل الإنتاج، من خلال الخيارات (المبنية على أساس من التمييز ومن ثم التفضيل) التي تبدد له فيما يتصل: باللغة الطبيعية التي يختارها أداة له، (وذلك عندما يتقن أكثر من واحدة منها)؛ وبالجنس الأدبي الذي يوظفه إطاراً لرؤيته الفنية؛ وبالموضوع الذي يدير نصه حوله؛ وبالتقنيات الموظفة فيه، والتي ييسرها له تكوينه الثقافي بمقدار غناه وسعته وعمقه، وبالمضمون الذي يود أن يحمله هذا النص، أو الدلالة التي يريد أن يولّدها من خلاله.

وجل هذه الخيارات فعل نقدي لا ينتهي بنص نقدي نقرؤه ونحكم عليه، وإنما بتفضيل يبدو طبيعياً جداً حتى إننا لا نكاد نتبينه ربما إلا بعد التحليل العميق لفعل الكتابة الأدبية نفسه.

طور الإنتاج: ويمارس المبدع النقد الأدبي في هذا الطور، من خلال جملة من الأفعال النقدية التي تكشف عنها أوراقه الخاصة (من مسودات، ومخططات، ودفاتر ملاحظات، ومراسلات، وغيرها مما لا تلتفت الثقافة العربية المعاصرة إليها، لقلة تقديرها لخطورتها في فهم عملية الكتابة ذاتها)، والتي ربما كان من أبرزها: الحذف والإضافة في أثناء مراجعته لما أنتج كلياً أو جزئياً. والتصحيح وهو يشمل اللغة، وعلامات الترقيم، والتواريخ، والأسماء، وبعض الحقائق المستخدمة في العمل الأدبي. والتنقيح، والمحكِّكون من الشعراء مولعون به، وإعادة الكتابة الجذرية للعمل الأدبي، وكلها أفعال مقاربة نقدية يلاحظها لسير كبار الكتاب المبدعين في مختلف الثقافات العالمية.

طور ما بعد الإنتاج: ويمارس المبدع النقد فيه على نحو بيّن وصريح والغالب أن تنتهي ممارسته له بنص نقدي مشافهة أو كتابة. وربما كان من أبرز صور ممارسته في هذا الطور: التمهيد أو المقدمة التي يكتبها المبدع لنصه المنتج ويودها أن تكون فاتحة لهذا النص. التعليق عليه وهو ما يشهده المتلقي في الحوارات التي تجري مع المبدع، أو الندوات التي يعقدها حوله، أو غير ذلك.

والنقد الضمني له عندما يكتب نقداً نظرياً يتصل بنقطة ما من عملية الإنتاج الأدبي يكون هذا العمل تجسيداً لها. النقد الصريح له وذلك عندما يكتب نقداً تطبيقياً لعمله (بعد إنتاجه بوقت قصير أو طويل)، والذي يحاول أن يجاري فيه النقاد والآخرين ممن باشروه بنقدهم، والغالب أن يتخذ هذا النقد الصريح شكل الشهادة التي باتت مألوفة للقارئ العربي في العقود الأخيرة.

والحقيقة أن النقد الأدبي الذي ينتجه المبدع، غالباً ما يكون محكوماً بنصوصهم الأدبية، أو نصوص من يعتقد أنهم أساتذته في النص، أو نصوص من يرى أنهم أفضل تلامذته في هذا الفن أيضاً.

مهما كان الأمر، فإن ممارسة المبدع للنقد الأدبي ممارسة مهمة وحيوية وخطيرة في عملية الإنتاج الأدبي في أي مجتمع إنساني، وينبغي أن يأخذها المرء بالحسبان في دراسته لأي وجه من وجوه هذه العملية، لأنها تمثل إفصاحاً عن وجهة نظر «داخلي» في هذه العملية – وجهة نظر من وضع نفسه في خدمة الكلمة، واتخذ من قلمه لسان صدق لها.

الصلة بينهما تستند إلى استخدامهما أداة واحدة هي اللغة

الأديب يوظف اللغة لتؤدي عدة وظائف تسودها الجمالية

الناقد يوظفها في شرح النص وتفسيره وتحليله والحكم عليه